

التصوف عند محمد إقبال

أ. مخلوف حمودي

جامعة البليدة

مقدمة:

عرفت شبه القارة الهندية حضارة إنسانية قبل الميلاد بنحو أربعة آلاف سنة، إلا أن تاريخها في تلك الحقبة البعيدة قد ظل مجهولاً¹. لذلك تعتبر مهد الإنسان والعلم والمعرفة، والأدب، والفن. وقد أنجبت من رجال الأعلام ما لا يُعد ولا يحصى. ومن خيرة ما أنجبت هذه القارة: الشاعر والأديب والفيلسوف "محمد إقبال"، الذي اتسم شعره بسهولة الأسلوب، ووضوح العبارة، وقوة المعاني وسرعة التأثير، فقد بلغ عدد التآليف التي تناولت فكره بالدراسة سنة 1977م حوالي 2000 ما بين كتاب ورسالة، عدا ما نُشر عنه من البحوث والمقالات، ناهيك عن المحاضرات والندوات التي أقيمت له في مختلف بلدان العالم وهو ما يجعلنا نشير إلى بيئته قبل الإشارة إلى تصوفه.

¹ جوستاف لوبون - حضارة الهند - تعريب عادل زعير مصر 1948م ص 205

I - بيئته:

أولاً: البيئة الهندية:

لا نستطيع في هذا المجال أن نتحدث بالتفصيل عن تاريخ الهند، حضارتها، تقاليدها، لغاتها، حكمتها، ودياناتها؛ لأن ذلك سيدخلنا في تفاصيل لا يسعها المقام، وحسبنا أن نقتصر على نظامها الطبقي، وأهم الأديان المنتشرة فيها، حتى نعرف البيئة التي أنجبت الرجل.

فالنظام الطبقي في شبه القارة الهندية قد اتخذ صورة بغیضة، وذلك لأنه كان يقسم الشعب الهندي إلى أربعة طبقات هي:¹

- طبقة البراهمة: وهي طبقة الكهنة ورجال الدين.

- طبقة الجيش والمحاربين.

- طبقة "الفيشة": وتشمل طائفة المزارعين والتجار.

- طبقة الشوادر: وهي طبقة الخدم والمنبوذين.

لقد كان هذا التفاوت الطبقي تفاوتاً صارخاً، إلى الحد الذي أهدرت فيه إنسانية الإنسان بالنسبة لطبقة الخدم، وذلك لأن شرائع "منو" قد جعلت لكل طبقة حدوداً لا تتعداها، وأطلقت يد البراهمة من كل قيد، ونصت على أن البرهمني لا يندس بذنب حتى ولو قتل الشعب كله، وأباح "منو" لأبناء الطبقات الثلاثة الأولى حق المصاهرة فيما بينهم، فإذا تجاوز ذلك إلى طبقة "الشوادر" انقلبوا منبوذين، وكم من شودري تجرع حمماً من الزيت، وكم منهم من قطعت يده لمجرد معارضته للبراهمة.²

¹ عبد المنعم النمر - تاريخ الإسلام في الهند - القاهرة مصر سنة 1959 م ص 29

² محمد غلاب - الفلسفة الشرقية - الطبعة الثانية - الانجلو المصرية - بدون تاريخ - ص 99

ثانيا: أديان الهند¹:

انتشرت في الهند - كما يذكر المؤرخون - أديان شتى ومذاهب مختلفة، كان من أهمها الأديان الكبرى الثلاثة:

أ- البرهمية: تنسب هذه الديانة إلى " برهمن " وهي أقدم الديانات الهندية، وكانت في أصل نشأتها تتسم بالتوحيد الخالص في العقيدة، العدل في الاجتماع، والاتصال الروحي المباشر بفاطر الكون، ولكنها قد انحرفت انحرفا شديدا، وتعقدت تعقدا شديدا، أصبحت به فلسفة غير علمية²، وأهم عقائد هذه الديانة:

1- عقيدة تناسخ الأرواح.

2- عقيدة وحدة الوجود.

3- تقديس البقر.

ب - البوذية: تنسب إلى "بوذا" الذي ولد على حدود النيبال في الهند حوالي سنة 560 قبل الميلاد في أسرة نبيلة، وقد مال إلى التقشف منذ صغره، وظل في تقشفه وتأمله إلى أن أدرك أنه تحرر من الهوى ومن شرور الكون، ومن الجهل، وعندئذ أطلق على نفسه اسم "بوذا" وهي تعني "العارف المستنير"، وتوصل بعد طول تأمل إلى الحقائق التالية:

1- الآلام الموجودة في الولادة، المرض، الموت والحياة كلها آلام وشرور.

¹ - الهندوسية ديانة عرقية في الهند، فهي ديانة كل هندي مالم يدين بديانة أخرى

² أبو الحسن الندوي- رجال الفكر والدعوة في الإسلام - دار القلم - دمشق سوريا - الطبعة الأولى -

2002م - ج1/ص97

التصوف عند محمد إقبال أ. مخلوف حمودي

2- سبب هذه الآلام والشور هي الشهوة التي تنمي فينا الرغبة في اللذة وإشباع الحواس، وفي إثبات الذات.

3- الطريق إلى التخلص من الآلام والشور هي أن ينسى الإنسان نفسه، وأن يمحو كلمة "أنا".

4- بذلك يصل الإنسان إلى صفاء الروح وسكينة النفس، حتى يتحقق له الغناء.

وقد استكملت البوذية معتقداتها على أيدي كبار مفكرها بعد مؤسسها، وآمنت بالله وإن أنكر بعضهم تدخله في العالم، كما أنكر البعض إرسال الرسل.¹

ج - الجينية: مؤسسها هو "فارداماتا"، ولد في أسرة نبيلة، بالقرب من مدينة "فيشالي" في الشمال الشرقي من الهند. مال إلى الزهد وأخذ يدعو إلى نشر الفضائل والسلام بين الناس حتى أطلق عليه اسم "جينا"، أي الغلاب الذي انتصر على الشهوات، ولهذا الاسم

الجديد نسبت ديانتته فسميت "الجينية".² وهذه الديانة تنظر إلى الحياة على أنها لعنة ينبغي أن يتخلص المرء منها، بنعمة الانتحار البطيء جوعاً، ليلغ سر الوجود، ويدرك الحقيقة المجردة. وطريق الخلاص عند "الجينيين" يقتضي الامتناع عن إيذاء أي كائن حي أو أي جماد.³

د- الإسلام في الهند: عرفت الهند الإسلام مبكراً عن طريق العرب الذين كانت لهم صلات تجارية بالهند، وبدأ تفكير المسلمين في فتح الهند مبكراً، إذ يرجع إلى عهد الخليفة الثاني، فقد سیر أحد ولآته جيشاً إليها سنة 32هـ

¹ الشهرستاني - الملل والنحل - تخريج محمد بن فتح الله - الطبعة الثانية - القاهرة - سنة 1956م
الجزء 2/ص 258

² محمد غلاب - مرجع سابق - ص 115

³ ديورانت - قصة الحضارة - ترجمة الدكتور زكي نجيب محمود - ج 3/ص 95.

التصوف عند محمد إقبال أ. مخلوف جمودي
، ثم كان الفتح الإسلامي الكبير للهند على يد السلطان "محمود الغزنوي" ، وقد أسس هذا السلطان أول دولة إسلامية في الهند وهي الدولة الغزنوية، ثم تابعت الدول الإسلامية فيها إلى أن سقطت آخر دولة وهي "الدولة التيمورية" التي أسسها السلطان "بايرشاه".¹ وقد ساعد النظام الطبقي المتجاوز للحدود، الذي أوردناه سابقا إلى دخول شعوب شبه القارة الهندية في الإسلام واعتناق عقيدته ونصرته.

II- موقف إقبال من التصوف:

أولا : مفهوم التصوف عند إقبال

قبل التعرض إلى مفهوم التجربة الصوفية عند إقبال، نتعرف على موقفه من التصوف بصفة عامة. والحقيقة أنه رحمه الله درس التصوف جيدا، قبل أن يقدم مفهومه للتجربة الصوفية في هذا الشأن يقول: « لقد ناقشت موضوع التصوف بطريقة علمية موضوعية إلى حد كبير، وحاولت أن أكشف عن الظروف الفكرية التي استلزمت هذه الظاهرة، وبعكس الفكرة الرائجة في هذا الصدد انتهيت من هذه المناقشة إلى أن التصوف كان ناتجا ضروريا لمجموعة، العوامل الأخلاقية والفكرية، التي كان لابد أن تحرك النفس الغافية نحو مثل أعلى للحياة»².

وقد انتهى إقبال من دراسته هذه إلى التمييز بين نوعين من التصوف:

- أ- تصوف إيجابي.

- ب- تصوف سلبي.

¹ أحمد الساداتي - تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندوباكستانية- الطبعة 2 - القاهرة سنة 1970م -

² عبد الوهاب عزام - محمد إقبال - سيرته وفلسفته وشعره - مطبوعات باكستان- 1954م - ص 18

التصوف عند محمد إقبال أ.خلف جمودي

فالتصوف السلبي هو التصوف الأعجمي، الذي كان منتشرًا في عصره،
وقد أشار إلى

أثر هذا التصوف في المسلمين فقال: « فأسلوب التصوف وهو الأسلوب الذي تطورت ونمت به الحياة الدينية في أسمى صورها أصبح الآن في حكم الفاشل، ولعله أضر بأي مكان آخر، فقد كان أبعد ما يكون عن تدعيم قوى الحياة النفسانية عند الرجل العادي، بحيث تعدد للمشاركة في موكب التاريخ، فعلمه نوعاً من الزهد الزائف، وجعله يقتنع بجهله ورقه الروحي »¹. وهذا النوع من التصوف قد صور العالم على أنه شر، ونشر روح التخاذل والتواكل بين المسلمين، فكان سبباً في تخلفهم وضعفهم سيطرة الجهل عليهم، وأوقف نمو قواهم الروحية، لأن التكاسل من شأنه إضعاف الروح في حين يعمل النشاط على تجديد قوى الروح .

وأما التصوف الإيجابي الذي يلتزم بمبادئ الكتاب والسنة ويعمل في إطارهما، فإن إقبال قد آمن به وأولاه عناية كبيرة. ويرى أنه العلاج الأنفع لعلاج الإنسانية مما أصابها من أمراض بسبب النزعة المادية، وفي هذا الصدد يقول: « وقد أصبح الرجل العصري بما له من فلسفات نقدية وتخصص علمي يجد نفسه في ورطة، والسبب في ذلك أن المذهب الطبيعي قد جعل له سلطاناً على قوى الطبيعة لم يسبق إليه، لكنه قد سلبه إيمانه في مصيره هو »². والحق أن المذهب الطبيعي الذي اعتمد فيه الإنسان على العقل وحده في التفكير دون إفساح مجال للروح، قد أمدّه بطاقات هائلة وفتح له مجالات واسعة في الطبيعة، وكشف له عن مغاليق كثيرة، غير أنه اغتر ونسى أصله، ونسى أن للطبيعة خالق، فقد طغى واستغنى فنسي أصله ونسي خالقه، لأنه أصبح لا يؤمن إلا بما هو مادي وبما

¹ الصاوي شعلان- إيوان إقبال- القاهرة سنة 1977م -ص 235

² أبو الحسن الندوي - روائع إقبال - دمشق سنة 1960م - ص 15

التصوف عند محمد إقبال أ. مخلوف حمودي

يقع عليه حسه، ومن ثم أنكر كل ما هو غيبي، وأنكر وجود الله، وأنكر القيم الروحية. لقد حاول إقبال أن يخفف من النزعة العقلية التي طغت على الإنسان المعاصر، وأن يعيد إلى النفوس النزعة الروحية التي تحفظ للبشرية وجودها، وتحقق لها السعادة والراحة النفسية، ويرد للإنسان إنسانيته التي أهدرت، وكرامته التي سلبت. والحقيقة أنه متأثر في ذلك بأستاذه جلال الدين الرومي، الذي يجله ويقدره، ويفتخر بتأثره به، حيث يقول في ذلك: « قد سحر عقولك سحر الإفرنج، فليس لك دواء إلا لوعة قلب الرومي، وحرارة إيمانه، لقد استنار بصري بنوره، ووسع صدري بحرا من العلوم »¹.

ويقول كذلك: « لقد أفدت من صحبة شيخ الروم أن كليما واحدا - يشير إلى سيدنا موسى - هامت على راحته يغلب ألف حكيم قد احنوا رؤوسهم للتفكير »².

من هنا كان مبعث اهتمام إقبال بالتصوف، وعنايته بالاتجاه الروحي، لما له من أهمية في الظروف التي ضاعت فيها الأخلاق، وانتشر الإلحاد، وأصبحت النفوس تستشعر بالضيايع. فالتصوف الإيجابي هو السياج المنيع والحصن المتين، الذي يحمي الأمم من الانحلال، ويقيها شر التفكك والضيايع.

- ثانيا: حاجة العصر إلى التصوف :

إن عصرنا الحالي في حاجة إلى هذا التصوف الإيجابي، الذي يلتزم بحدود الشرع ويتحرك في إطاره. فهو الكفيل بإعادة الوضع الأخلاقي البناء، ويفعل مصادر القوى الخيرية على مستوى الفرد وعلى مستوى الأمة. وفي هذا

¹ محمد إسماعيل الندوي - نظرات جديدة في شعر محمد إقبال - القاهرة سنة

1969م - ص 11.

² أبو الحسن الندوي - رجال الفكر والدعوة في الإسلام - مرجع سابق - ج 1/ ص 34

التصوف عند محمد إقبال أخلف جمودي
يقول إقبال: « ... الدين الذي هو في أسمى مظاهره ليس عقيدة فحسب أو كهونة أو شعيرة من الشعائر، هو وحده القادر على إعداد الإنسان العصري إعداداً خلقياً يؤهله لتحمل التبعة العظمى التي لا بد من أن يتمخض عنها تقدم العلم الحديث، وأن يرد إليه تلك النزعة من الإيمان، التي تجعله قادراً على الفوز بشخصيته في الحياة الدنيا، والاحتفاظ بها في دار البقاء. إن السمو إلى مستوى جديد في فهم الإنسان لأصله ول مستقبله من أين جاء وإلى أين المصير، هو وحده الذي يكفل له آخر الأمر الفوز على مجتمع يحركه تنافس وجش، وعلى حضارة فقدت وحدتها الروحية بما انطوت عليه من صراع بين القيم الدينية والقيم السياسية »¹.

و خلاصة القول في هذا أن موقف إقبال من التصوف، هو موقف عالم، مسلم، معتدل، واعٍ، يجعل لمبادئ الدين وحقائقه الكلمة الأولى، وهو في موقفه هذا يشبه موقف ابن تيمية من التصوف، هذا الموقف الذي يجعل من التصوف مدرسة للطهر والعفة، وحصناً للأخلاق ودرعاً للدين، ودافعاً للعمل والجهاد والمثابرة، وهذا ما جعل أبو الحسن الندوي يكتشف حقيقة لم يسبق إليها - فيما أعلم - أحد، وهي أن ابن تيمية رحمه الله يعد أحد العارفين بالله².

ثالثاً: مصادر المعرفة عند محمد إقبال:

في الحقيقة إنني أريد أن أعرض مفهوم التجربة الصوفية عند محمد إقبال من باب نظرية المعرفة، التي تختص في إمكانية قيام معرفة ما عن الوجود بمختلف أشكاله ومظاهره، وإذا كانت المعرفة ممكنة فما أدواتها؟ وما حدودها؟ وما قيمتها؟

¹ ديوان هدية الحجاز - عن المرجع السابق - ص 34

² Iqbal : development of metaphysca in Persia : p 10

فمن البحث في هذه القضايا وأمثالها تفرعت المذاهب الفلسفية المعروفة:

- المذهب العقلي: الذي يرى بأن العقل بما ركب فيه من استعدادات أولية أو مبادئ قبلية هو وسيلتنا الوحيدة للمعرفة اليقينية.
 - المذهب الحسي: الذي يرجع المعرفة كلها إلى ما تمدنا بها الحواس باعتبار العقل صفحة بيضاء ليس فيه إلا ما تنقله إليه حواسنا.
 - المذهب العرفاني: الذي يذهب إلى أن الطريق الصحيح للمعرفة الجديرة بهذا الاسم هو الحدس، أو العرفان " التجربة الصوفية " .
- إن محمد إقبال يذهب إلى أن المعرفة لا تأتي للإنسان بطريق واحد، وإنما يكون له ذلك عن طريق الرياضة الصوفية الباطنية، والطبيعة وما فيها من كائنات، والتاريخ وما يحتوي عليه من قصص هي محل للعبارة. فهو يستلهم رأيه من القرآن والسنة التي أشارت إليها المصادر السالفة الذكر، ويستشهد إلى ما ذهب إليه بقول " برنارد رسل " حيث يقول:

« ونحب أن نشير في هذا المقام إلى ما صرح به " رسل " من أن التاريخ الفكري والحضاري للإنسان يشير إلى وجود ميلين متميزين ونظريتين مختلفتين إلى الحقيقة، أحدهما الميل الصوفي، والآخر الميل العلمي. وقد برز عظماء في كل واحد من هذين الميلين، فكان هناك من بلغ الذروة في الحدس الصوفي والاعتماد على البصيرة، كما كان هناك من برز في الجانب العلمي الذي يعطي شهادة الحواس والتجارب المقام الأول، غير أن هناك أعظم من هؤلاء جميعاً، وهو الذي جمع إلى ثاقب الفكر ودقيق الملاحظة، رفاة الحس وصدق الحدس ونفاذ البصيرة وإضاءة الوجدان »¹.

¹ (عن عبد المقصود عبد الغني - محمد إقبال و منهجه في تحديد الفكر الإسلامي مكتبة الزهراء -

رابعاً- التجربة الصوفية عند إقبال:

يعرف محمد إقبال -رحمة الله عليه- التجربة الصوفية من خلال خصائصها المتمثلة فيما يقوله في هذا الصدد:

1- إن أول ما نلاحظ هو واقع الوسائط في هذه الرياضة، أنها تجربة أو رياضة تصل إلى النفس مباشرة، فكما أن نواحي التجربة العادية تخضع لتأويل موضوعات الحس لتحصيل العلم بالعالم الخارجي، فكذلك مجال التجربة الصوفية يخضع للتأويل لتحصيل العلم بالله .

2- والملاحظة الثانية هي أن الرياضة الصوفية كل لا يقبل التحليل، فعندما أدرك المائدة الموجودة أمامي يدخل في هذا الإدراك المفرد، ما لا يعد من أسس الإدراك فأتخير من هذه الكثرة الوافرة ما يتصل بالمائدة، ويقع في ترتيب معين من الزمان والمكان وأصقله في فكرة متسقة عن المائدة.

أما الحال المتصوف فمهما ظهر بوضوح، ومهما بلغت من غنى فإن التفكير فيها يصل إلى الحد الأدنى من درجاته ويستحيل تحليل مدركات هذه الحال كما نحلل الإدراك الحسي، فالحقيقة قد تداخلت فيها جميع البواعث المختلفة، وتألقت منها جميعاً وحدة واحدة غير قابلة للتحليل ولا أثر فيها للتمييز المعهود بين الذات والموضوع .

3- والأمر الثالث الذي نلاحظه هو أن الحالة الصوفية عند المريد هي لحظة من الاتصال الوثيق بذات أخرى فريدة سامية محيطة تفنى فيها الشخصية الخاصة للمريد فناء موقوتاً .

4- وبما أن المعرفة الصوفية معرفة مباشرة فمن الواضح أنه لا يمكن أن يطلع بالتعقد عليها نقلها لإنسان آخر، وذلك لأن الحالات الصوفية أشبه بالشعور منها بالتعقل، وما يعلنه الصوفي أو النبي من تفسير لفحوى محتويات

التصوف عند محمد إقبال.....أ.مخلف حمودي

شعوره الديني يمكن أن يبلغ للناس على صورة قضايا، ولكن محتويات الشعور الديني نفسها لا يمكن الاطلاع عليها أي نقلها لغيره.

وكون المعرفة الصوفية لا يطلع عليها يرجع إلى أن هذه المعرفة في جوهرها شعور غير ملحوظ لم يمسه العقل المستطرد في التعبير.

على أنه ينبغي أن نلاحظ أن الشعور الصوفي ككل شعور فيه عنصر من الفكر أيضا.

وسبب هذا العنصر على ما اعتقد يسعى به الشعور الصوفي أن تكون له صورة فكرة. وفي الحق أن طبيعة الشعور السعي إلى الالتماس والإفصاح عن نفسه في الفكر.

5- واتصال المريد بالذات الأزلية، ذلك الاتصال المباشر الذي يبعث في نفسه شعورا بأن الزمن المتجدد، فالحالة الصوفية باعتبار تفردا تظل متصلة بالتجربة العامة على وجه ما.¹

6- والجدير بالملاحظة هنا هو أن إقبال يضيف عنصرا جديدا في مفهوم التجربة الصوفية، فهو لم ينكر دور الفكر(العقل) في الرياضة الصوفية فهو يرى أن الفكر والإلهام متصلان، فليس هناك من سبب في رأيه يدعو إلى الظن بأنهما متضادان بالضرورة، فهما ينبعان من أصل واحد، وكل منهما يكمل الآخر، فأحدهما يدرك الحقيقة جزءا جزءا، والآخر يدركهما في جملةهما، أحدهما يركز نظرتة نحو ما فيها من خلود، والثاني نحو ما فيها من حدوث. فالبداية تهدف إلى الحقيقة في مجموعها بالتدبر في تعيين أجزاءه المختلفة، وإفراد كل واحد منها والتأمل فيه على حدة. كلاهما يفتقر إلى الآخر لتجديد قواه، وكلاهما

¹ ديوان الأسرار - ترجمة الدكتور عزام - ص 19، وكذلك رسالة الخلود - ترجمة الدكتور السعيد

محمد جمال الدين ص 333

التصوف عند محمد إقبال أ. مخلوف حمودي
يلتمس شهود نفس الحقيقة التي تنكشف لكل منهما على نحو تتلاءم مع وظيفته
في الحياة. وفي الحقيقة أن البداهة - كما يقول برجسون - ليست إلا ضرباً
عالياً من التفكير¹.

ونخلص من ذلك إلى أن التجربة عند محمد إقبال هي مصدر المعرفة
لكن هذه التجربة في مفهومها الواسع تنقسم إلى قسمين:

- أ) التجربة العلمية التي موضوعها الطبيعة، ووسائلها العقل والحواس.
- ب) التجربة الصوفية وموضوعها الذات، ووسائلها القلب والعقل. وبذلك
فهو يجمع بين وسائل المعرفة الثلاثة للحصول على المعرفة والوصول إلى
الحقيقة. وفي هذا الصدد يقول: « فأحدى الطرق غير المباشرة لإيجاد الصلات
بيننا وبين الحقيقة التي تواجهنا هي الملاحظة التأملية والسيطرة على العلامات
التي تدل عليها الحقيقة كلما تكشفت هذه العلامات عن ذاتها للإدراك الحسي .
أما الطريقة المباشرة فتكون بالاتحاد مع الحقيقة عندما تتجلى في داخل
النفس اتحاداً مباشراً، وعناية القرآن بالطبيعة ليست شيئاً أكثر من الاعتراف بأن
الإنسان يمت بالصلة إلى الطبيعة، وهذه الصلة بوصفها وسيلة محكمة للتحكم
في قوى الطبيعة، لا لمجرد رغبة جامحة في التحكم، وإنما لغرض أنبل يؤدي
إلى تحرر حركة الحياة الروحية في رقيها وتساميتها. ولكي نكفل إدراك الحقيقة
إدراكاً كاملاً ينبغي أن يكمل الإدراك الحسي بإدراك آخر هو ما يصفه القرآن
بإدراك "الفؤاد" أو "القلب" قال تعالى: «الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق
الإنسان من طين، ثم جعل نسله من سلاله من ماء مهين ثم سواه ونفخ فيه
روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون » - [السجدة 7-9]

¹ محمد إقبال - تجديد التفكير الديني في الإسلام - ترجمة عباس محمود - مراجعة عبد العزيز
المراغي بك - مطبعة لجنة التأليف و الترجمة و النشر - القاهرة - 1955م - ص 214 .

التصوف عند محمد إقبال أ. مخلوف جمودي

والقلب نوع من علم الباطن أو البداهة، يصفه الشاعر الرومي في عبارة طليقة فيقول: «إنه يتغذى بأشعة الشمس، ويصل بيننا وبين وجوه الحقيقة، غير تلك الوجوه المتاحة لإدراك الحواس»¹.

ويضيف إقبال ليؤكد على صحة المعرفة القلبية والاعتداد بها قائلاً: «والقلب كما يفهم من القلب لا يكذب أبداً إذ فسر على وجهه الصحيح على أنه لا ينبغي أن نعد القلب قوة خاصة خفية، فما هو إلا أسلوب من أساليب تحصيل الحقيقة ليس للحس بما لهذه الكلمة من معنى فسيولوجي أي دخل فيه. ومجال الرياضة المفتوح سبيله للقلب مجال حقيقي وواقعي ككل درب آخر من دروب التجربة، وليس في وصف رياضة القلب بأنها روحانية أو صوفية، أو أنهما من خوارق الطبيعة، ليس في هذا ما يقلل من شأنها من حيث هي التجربة، فكل تجربة في نظر الإنسان البدائي كانت من خوارق الطبيعة، ولقد أوحى إليه ضروريات الحياة الملحة أن يضع لها تفسيراً، ولدت منه بالتدريج "الطبيعة" المعنى الذي اصطللنا عليه لهذا اللفظ».

والحقيقة أنه لم يوجد من استطاع أن يوضح التجربة الصوفية بلغة العصر بمثل هذا الشرح والتفسير، كما وضحتها محمد إقبال، ولقد مكّنه من ذلك سعة الاطلاع والمعرفة كما رأينا سابقاً في مقدمة هذا البحث. أضف إلى ذلك إيمانه القوي الصادق حيث لاح له ذلك بقبس من نور الحقيقة يشعر بها كل من يقرأ فكر هذا الرجل. فهو صاحب عقل وبصر نافذين، وحس رفيف قل من رزق ذلك.

والسؤال الذي يطرح نفسه علينا: هل بعد هذا يمكننا نقد وفحص نتائج التجربة الصوفية؟

¹ أنظر ديوان محمد إقبال - إعداد سيد عبد الماجد الغوري - دار ابن كثير دمشق - بيروت - ص 42

التصوف عند محمد إقبال أ.خلف حمودي

يرى إقبال أن: « تناول التجربة الصوفية بالنقد والتمحيص ليس فيه شيء من عدم الاحترام لها، فنبى الإسلام كان أول من تناول بالنظر النقدي الظواهر الروحية، وقد أورد البخاري¹ وغيره من رواة الحديث وصفا مستفيضا لملاحظة الرسول - لشاب يهودي- هو ابن صياد استرعت أحوال ذهوله أنظار النبي، فاخبره وسأله وفحص عن أحواله. وعلى أية حال فإن أول مسلم أدرك معنى تصرف النبي وقيمه هو ابن خلدون الذي تناول عناصر المعرفة الصوفية بروح نقادة وأوشك أن يصل إلى النظرة الحديثة عن العقل فيما وراء الشعور»².

وهنا نلاحظ أن إقبال يعطي تفسيراً خاصاً للمقولة المشهورة بين علماء الصوفية من الغزالي في القرن الخامس هجري (ت: 505 هـ) إلى محمد متولي الشعراوي في عصرنا هذا، والتي ترى أن العقل محدود. كما نجد أنها عند ابن عربي³، عندما التقى بآبَن رَشْد وحواره معه، والتي خلاصتها أن العقل في بحثه عن الحقيقة محدود بسقف لا يمكنه تجاوزه، وفي ذلك يضرب محمد متولي الشعراوي مثالا قاتلاً: «... مادام للعقل حدوده التي يقف عندها ولا يتعداها، وقد شبهته مرة بأنه كالمطية التي تحمل صاحبها إلى باب السلطان ليدخل إلى رحابه بدونها...»⁴.

ثم يوضح ذلك الرأي صراحة قاتلاً: «... الرأي القائل بأن العقل في جوهره متناه، ومن ثم لا يقدر على إدراك غير المتناهي رأي ينهض على تصور خاطئ لحركة العقل في تحصيل المعرفة. إن قصور الفهم المنطقي (العقل

¹ نفس المرجع - ص 42

² نفس المرجع - ص 177

³ للاطلاع على ذلك أنظر: أبو الحسن علي الحسن الندوي - رجال الفكر و الدعوة في الإسلام -

مرجع سابق ص 41 ، 42

⁴ إقبال تجديد الفكر الديني في الإسلام - مرجع سابق - ص 105

التصوف عند محمد إقبال أ.خلف حمودي

الاستدلالي الذي يسير على خطوات في عالم الحس المتفرق) الذي يواجه الكثير من الجزئيات المتنافرة فيما بينها، والتي لا أمل في ردها جميعاً إلى وحدة واحدة، هذا القصور هو الذي يجعلنا نشك في إمكان توصل العقل إلى إدراك قاطع...¹، ويضيف في نفس السياق قائلاً: «... على أن الفكر قادر على أن يصل في حركته العميقة إلى لا نهائي سار فيها، والتصورات المتناهية المختلفة ليست إلا لحظات في حركة تجليه. فالفكر من حيث طبيعة جوهره ليس قاراً معطلاً بل هو متحرك فعال يتكشف إذ يحين الوقت عما فيه من لا نهائية، مثل الحبة - (البذرة) - تحمل في طياتها من أول الأمر وحدة الشجرة الكاملة على أنها حقيقة ماثلة، وعلى هذا فالفكر هو الكل في حركة تكشف عما في ثناياه، يبدو للناظر إليه من زاوية الحدوث كسلسلة من معينات محددة لا يمكن إدراكها إلا من طريق نسبة بعضها إلى بعض...²».

يستمد محمد إقبال مفهومه للعقل من القرآن الكريم، هذا الأخير الذي كان مصدراً إلهامه الأول والأخير، وأما باقي المصادر الأخرى ليست إلا وسائل يستعملها في فهم النصوص القرآنية، فصدق الله العظيم القائل: «يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم» [سورة الحديد 28].

فإقبال يؤمن بالعقل الاستدلالي المسترشد بنور الإيمان، ويرفض العقل المغتر الذي ينكر كل سلطان عليه، وخاصة سلطان العقل. فإقبال كما يرفض النظر المجرد الذي يهمل الواقع، فهو يفهم من قوله تعالى: «قال يا آدم أُنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أُنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ» [البقرة 33-]. بأنها تشير إلى أن

¹ نفس المرجع - ص (26-31)

² نفس المرجع - ص 7

التصوف عند محمد إقبال أ. مخلوف جمودي
الإنسان موهوب بالملكة التي تجعل له القدرة على وضع أسماء للأشياء أي أنه
يكون التصورات لها، وتكوين هذه التصورات معناه إدراكها وفهمها. فالمعرفة
الإنسانية قائمة على الإدراكية، وبفضل هذه المعرفة الإدراكية يدرك الإنسان
ما هو قابل للملاحظة من الحقيقة¹.

نختم هذا المقال ببعض حكم ومواقف إقبال:

1- لقد استطاع إقبال أن يعرف النفس وغاص في أعماقها، ودعا إلى
معرفتها فقال: « أنزل في أعماق قلبك، وادخل في قرارة شخصيتك، حتى
تكتشف سر الحياة، ما عليك إذا لم تنصفي وتعرفني، لكن أنصف نفسك يا
هذا! واعرفها، وكن لها وفيًا. ما ظنك بعالم القلب، وهو كله حرارة وسكر،
وحنان وشوق، أما عالم الجسم فتجارة وزور واحتيال. إن ثروة القلب لا تفارق
صاحبها، أما ثروة الجسم فظل زائل، ونعيم راحل، إن عالم القلب لم أرى فيه
سلطة الإفرنج ولا اختلاف الطبقات، ولقد كدت أذوب حياء، وتندى جبیني
عرقاً؛ إذ قال لي حكيم: إذا خضعت لغيرك؛ أصبحت لا تملك قلبك ولا
جسمك»².

2- وقال في نفس السياق والمصدر: « إن الإنسان إذا عرف نفسه بفضل
الحب الصادق، وتمسك بآداب هذه المعرفة، انكشف على هذا المملوك أسرار
الملوك. إن الفقير الذي هو أسد من أسود الله أفضل من أكبر ملوك العالم.

3 - « إن الصراحة والجرأة من أخلاق الفتیان، وأن عباد الله الصالحين لا
يعرفون أخلاق الثعالب ».

¹ نفس المرجع - ص 23

² نفس المرجع - ص 24

التصوف عند محمد إقبال أ. مخلوف حمودي

- « يا صاح! إن الموت أفضل من رزق يقص من قوادمي ويمنعني من حرية الطيران ».

- قدم له رئيس وزراء في دولة في عيد ميلاده، هدية محترمة من النقود فرفضها وقال: « إن كرامة الفقير تأبى علي أن أقبل صدقة الأغنياء ».

- يقول في مقطوعة: « لك الحمد يا رب! إذ لست من سقط المتاع، ولست من عبيد الملوك والسلاطين، لقد رزقتني حكمة وفراصة، عليّ أني لم أبعها لملك من الملوك ».

- ويقول: « إني من غير شك فقير قاعد على قارعة الطريق، ولكنني غني النفس أبيي ».

- ويقول: « إذا لم تكن تعرف رازقك كنت فقيرا إلى الملوك، وإذا عرفته أفترق إليك كبير الملوك. إن الاستغناء ملوكية، وعبادة البطن قتل للروح، وأنت مخير بينهما، إذا شئت اخترت القلب، وإذا شئت اخترت البطن ».

4 - عرضت عليه الحكومة البريطانية وظيفة نائب الملك في إفريقية الجنوبية، وكان من تقاليد هذه الوظيفة أن حرم نائب الملك تكون سافرة، تستقبل الضيوف في اللوائح الرسمية وتكون مع زوجها في الحفلات، فأشير عليه بذلك فرفضها وقال: « مادام هذا شرطا لقبول الوظيفة؛ فلا أقبله، إهانة ديني، ومساومة كرامتي ».

5- قال رحمه الله عندما قدّم إلى الأمير الشهيد نادر خان ملك أفغانستان المصحف الشريف:

« إن هذا القرآن سند أهل الحق، في ضميره حياة وروح، تدرج في بدايته النهاية، به فتح علي باب خير ».

5- ويقول في ديوان أسرار خوذني : « إن هذا الكتاب، كتاب خالد، حكمته غارقة في الأبد، إنه يفشي أسرار تكوين الحياة، ويثبت الضعيف الذي تزلزلت أقدامه بالقول الثابت ».

- « قوة الذات تحول حبة الخردل إلى جبل .

خور الذات يحول الجبل إلى حبة خردل » [جناح جبريل]

- « يتجاوز الهلال كل وجوهه وجها بعد وجه

من يستطع بلوغ الغاية القصوى دون جهد؟ » [جناح جبريل]

- « غاية ثورة المؤمن، أن تتجلى عليه ذاته، والحق أن موسيقى الكون

الخالدة لا تقوم إلا على العقبات » [جناح جبريل].

- « لا تتجنب الأزمنة الصعبة، من لا يتخطى العقبات لا قيمة له، ألا

تعرف أن الموجة لا تكون ممتعة إلا عندما تلطم الصخور ؟ » [رسالة المشرق].

وأخيرا نختم بهذا البيت الذي يلخص موضوع بحثنا:

« خير أنواع الزهد ليس في هجر الطين والماء

خير أنواع الزهد في غزو كل زاوية في الأرض والسماء».